(١٦)

مشورة امرأة أنقذت الصحابة!

ساق رسول الله ﷺ، من الهديْ في عمرة الحديبية سبعين بدنةً، وساق عدد من أصحابه هدياً، منهم عثمان ابن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم. وكان الذين لا هَديْ معهم هم الأكثرون من الصحابة. فلما انتهى أمر كتابة الوثيقة بين المسلمين والمشركين، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا». فلم يقم منهم أحد، فقالها لهم مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، يقول رواة السيرة: «فوالله ما قام من أصحابه أحد»!

فشق ذلك على النبي ﷺ، واشتد عليه، فدخل خباءه وفيه أم سلمة رضي الله عنها، فعرفت الغضب في وجهه، فسألته عن الأمر، فقال لها: «هلك المسلمون، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا» وفي رواية: «يوشك أن تنزل على هؤلاء حجارة من السماء...» وفي رواية ثالثة: «ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه، وهم يسمعون كلامي وينظرون وجهي»؟!

قالت أم سلمة : « يا رسول الله لا تَلُمْهُمْ ! فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، وبرجوعهم بغير فتح (أي دون أن يدخلوا مكة ويعتمروا). يا نبي الله ، اخرج ولا تكلم منهم أحداً كلمة ، حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعو حالقك فيحلقك »[1] فجلى الله تعالى عن الناس بأم سلمة كما يقول الرواة .

خرج رسول الله ﷺ ، بعد نصيحة أم سلمة ، التي طيبت خاطره على أصحابه ، والتمست لهم العذر ، ودلته على سبيل يضمن له أن ينفذوا ما أمرهم به ؛ خرج إلى بدنه فأهوى إلى واحدة منها مكبراً « باسم الله والله أكبر » ونحرها. فتواثب المسلمون إلى الهَدْي ينحرونه حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً ، لتسارعهم إلى نحر الهَدْي بعد أن رأوا رسول الله ينحر هديه !

وكان في الهدي جمل أبي جهل الذي غنمه المسلمون يوم بدر ، وكان نجيباً (جيداً) مَهْرِياً (نسبة إلى قبيلة من قضاعة أو بلدة بُعمَان كلاهما تسمَّى مَهرَة) فشرد من المسلمين وتوجه تلقاء مكة ولم يقف حتى بلغ دار أبي جهل ،

---

(١) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم، سبق تخريجه .

وخرج يطلبه عمرو بن عَنَمة بن عدي الأنصاري[1] ، فأبى سفهاء مكة أن يعطوه إياه ، فتدخل سهيل بن عمرو فأمرهم برده فردوه . ودفع بعض أهل مكة فيه عدة نياق (أرادوا شراءه من المسلمين) فقال لهم رسول الله ﷺ « لولا أنا سمينـاه في الهدي (أي جعلناه منه) فعلنا » ونحره ﷺ عن سبعة . قال أصحاب السير :« كان النبي قد أهداه ليغيظ بذلك المشركين »!

وكانت خيام رسول الله ﷺ مضروبة في الجزء من أرض الحديبية الذي يخرج عن الحرم ، فإذا أراد الصلاة دخل الجزء الذي هو من الحرم فصلى ثم عاد إلى خيامه ، وبعث عند نحر الهدي بعشرين بدنة لتنحر في الحرم عند المروة ، ثم دخل قبة له من جلد ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الكعبي فحلق له رأسه ، ورمى شعره فوق شجرة كانت إلى جنبه ، فجعل الناس يقتسمونه كل يريد منه نصيباً ، فكان ممن أخذ منه أم عمارة الأنصارية ، فكانت ـ بعدُ ـ تضعه في الماء وتسقي منه المريض فيبرأ ![2]

---

(١) ترجمته في ابن الأثير، أسد الغابة برقم ٣٩٢٢، وفي الإصابة لابن حجر برقم ٥٩٢٥ وفيهما أنه من البكائين الذي نزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (التوبة:٩٢) .

(٢) الصالحي ، السابق، ص٩٣.

وجعل الصحابة يتسابقون إلى الحلق وقد أخذهم غمٌّ عظيم لما تأخروا عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا لشدة تعجلهم في الحلق لئلا يسبقهم رسول الله ﷺ، ولحرصهم على المبادرة إلى تنفيذ أمره.

وحلق بعض المسلمين، وقصَّر بعضهم، فأخرج رسول الله رأسه من قبته وقال: «اللهم ارحم المحلقين»، قيل يا رسول الله والمقصرين، قال: «اللهم ارحم المحلقين» حتى قالها ثلاثاً، ثم قال: «والمقصرين»[1].

ولولا نصيحة أم سلمة لأصاب من تباطؤوا في تنفيذ أمر رسول الله ﷺ ما لا يعلمه إلا الله. ولكن مشورتها أنقذت أمة الإسلام «يومئذ» مما سماه النبي ﷺ، «هلاكاً»، وفي ذلك من الدليل على جواز مشاورة المرأة في الأمور العامة، مما يقطع حجة القائلين: إنها تشاور في شؤونها الخاصة فحسب. وفيه دليل على فضل أم سلمة ووفور عقلها، وكمال نفسها، وفهمها ما كان يجول بنفوس أصحاب النبي ﷺ، حتى طيبت بذلك نفسه ولم توغر على أصحابه صدره!

---

(١) الصالحي، ص ٩٤؛ وفتح الباري، جـ٥ ص٣٤٧-٣٤٨؛ وفيه أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله لما ظاهرت للمحلقين دون المقصرين؟ قال لأنهم لم يشكوا.

ولا يلتفتن عاقل إلى قول من قال »لم تصب امرأة في مشورة إلا أم سلمة ، وبنت شعيب ! [1] « فإن هذا من تضييق رحمة الله وفضله ، الذي يؤتيه مَنْ يشاء من الرجال والنساء ، وهو ظلم للمرأة لا يليق بأهل العلم ولا ذوي الرأي أن يقعوا فيه .

* * *

(١) انظر كتابنا : الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء، ٢٠٠٠، (المرأة وممارسة العمل السياسي)، ص ٢٦ وما بعدها؛ ومحمد هيثم الخياط، المرأة المسلمة وقضايا العصر، دار سفير الدولية للنشر ،القاهرة ٢٠٠٧، ص ١٦ وما بعدها .